

## حقيقة الزهد



«إنَّ المراد من ذم الدنيا ليس الدنيا نفسها بل هو حب الدنيا، ذلك أنَّ الخطر لا يكمن في الدنيا ذاتها بل في التعلق بها.

فالثروة والمال والجاه والمرأة والأولاد ليست أموراً مذمومة بل إنَّ التعلق بها هو المذموم، ذلك أنَّ الدنيا هي ما خلق الله سبحانه من شمس وقمر وأرض ونجوم وجماد ونبات وحيوان وإنَّ الدنيا عبارة عن المرأة والولد والمال والثروة، وكلُّ هذه موجودات خلقها الله وأبدعها وأقسم بها فلا يمكن أبداً أن تكون مذمومة. إنَّ الذم ينحصر في التعلق بهذه الأمور، وينطوي هنا معنى الزهد في الدنيا.

قد يرد إشكال في هذا العرض وتساؤل عن الفرق بين أن نقول بأنَّ الدنيا مذمومة ينبغي تركها وبين أن نقول بأنَّ حب الدنيا هو المذموم. فلماذا يكون حب الدنيا مذموماً وهو أمر غرسه الله في نفس الإنسان، ولماذا لا يكون هذا الجانب مقدساً كسائر مخلوقات الله؟ إذ لولا هذا الميل للدنيا الذي أودعه الله في نفس الإنسان بل وفي نفس كلِّ كائن حي لما استمرت الحياة على وجه الأرض ولما دافع الإنسان عن نفسه ضد الأخطار التي تواجهه ولما وجدت تلك الرغبة في نفوس الحيوانات في الاستمرار في العيش والدفاع عن الحياة ولما ترعرع الحب في قلب الرجل للمرأة والأولاد. فمن أجل استمرار الأجيال وبقاء النوع الإنساني أودع الله في نفس هذا المخلوق رغبات وميولاً شتى: فمن حبه إلى العزة والقدرة إلى الميل في كسب العلوم والتمتع بالجمال وغير ذلك من الميول.

إذا كننا لا نستطيع أن نذمَّ العالم وما فيه من موجودات ومخلوقات فإنَّ في هذه الحالة لا يمكننا أن نذم التعلق والرغبة بها لأنَّها جزء من الخلق شأنها شأن سائر أعضاء الإنسان، ذلك أنَّ كلَّ ما هو موجود في الإنسان إنما يستند إلى حكمة في خلقه حتى الشعرة الواحدة والعرق المتناهي في الصغر. لا يوجد شيء زائد أو عيب في الخلق، كذلك الجانب الروحي في الإنسان فالرغبات والميول هي الأخرى ليست موجودة عيباً أو دون حكمة، وإذن فإنَّ ترك حب الدنيا ينطوي على نفس الإشكال الذي يثار في مسألة ترك الدنيا ذاتها.

والجواب على هذا الإشكال هو أنَّ المقصود من حب الدنيا ليس ذلك الميل الفطري الذي تنطوي فيه حكمة الحق كما تعبر عنه الآية الكريمة: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) (الروم/ 21).



إذن فمن هو التارك للدنيا الزاهد فيها؟ إنَّه الإنسان الذي سخر الدنيا من أجل الوصول إلى هدفه السامي في الآخرة.

إنَّ الانقطاع إلى الدنيا لا يؤدي إلى توقف حياة الإنسان بل إلى تدميرها فهل تظنون أنَّ الحرص يتمكن من إدارة الدنيا؟ أو أنَّ الطمع قادر على تسيير الحياة؟ أو أنَّ الغضب والشهوة يمكنها من منح العالم قدراً من النظام؟ وهل أنَّ عبادة البطن أو المرأة أو المال أو الجاه أو كلَّ ما يعبر عن الاكتفاء بالدنيا والاستغراق فيها قادر على منح السعادة للإنسان؟ إنَّ الإنسان لا يمكنه أن يدير الدنيا أو يصنع مدينته الفاضلة، ويحيى حرّاً إلا إذا سخر الدنيا لإرادته ولم يصبح أسيراً لها تتقاذفه أمواجه المتلاطمة.

إنَّ جميع الرذائل كالكذب والرياء والتملق والظلم إنما تنشأ من عبادة الدنيا، وفي مقابل ذلك فإنَّ جميع الفضائل إنما تنتج عن الزهد في الدنيا وعدم الاكتفاء بها.

إنَّ الإنسان لا يمكنه أن يصبح شجاعاً إذا كان غارقاً في حب الدنيا وعبادتها كما لا يمكنه أن يكون عفيفاً أو أن يعيش حياته حرّاً كريماً.

إنَّ الزاهد هو من تتوفر فيه هذه الخصال لا الإنسان المنزوي الذي يعيش على هامش الحياة ضعيفاً سلبياً متطفلاً خاضعاً لعبيد الدنيا.

الزاهد هو من يسمو على أولئك العبيد بفكرة لا يخشى فراق الحياة وتقلباتها، شجاع جريء حرّاً عفيف كريماً وتملاً نفسه روح التضحية والفداء.

إنَّ أوَّل خصلة في أولئك الذين يضحون بأنفسهم هي الزهد في الدنيا بكلِّ ما للزهد من معاني، فهذا عليّ أمير المؤمنين (ع) الذي هو خلاصة جميع الفضائل الإنسانية من عدالة وتقوى وشجاعة وحرية وسخاء وكرم ووفاء ومروءة، لقد حاز جميع هذه الصفات لأنَّه رأى نفسه أسمى وأشرف من الدنيا وما فيها، قال في وصيته لولده الحسن: وأكرم نفس عن كلِّ دنيّة وإن ساقتك إلى الرغائب فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك حرّاً، وما خير لا ينال إلا بشرّاً وقال (ع): "الدنيا دار ممر لا دار مقر، والناس رجلان، رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها".

وهناك فريق يعيش ثمَّ يغادر الدنيا وفي رقبته آلاف القيود وهناك فريق آخر يغادر الدنيا حرّاً لا يعرف للعبودية معنى، إلا عبودية الله سبحانه، لا يعبد الشهوة والمال ولا ينقاد للغضب ولا يخضع للجاه ولا يستسلم للثراء بل يحيى حرّاً كريماً النفس، وهذا هو المعنى الحقيقي للزهد.►